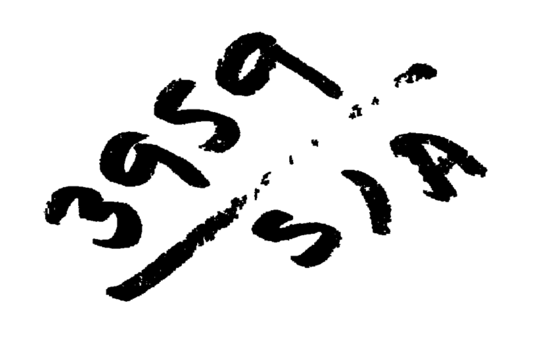
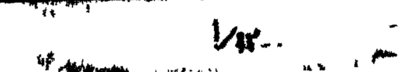

3959
517A


أنيس النصولي
موطني بيروت



انيس النصولي

موطني بيروت

مطبعة الكشاف بيروت

هذا بحث عن مدينة بيروت عاصمـة الجمهورية اللبنانية المستقلة احببت ان ازفه لقراء العالم العربي عسى ان يستفيدوا منه ويتعرفوا الى البـــلد الذي نفتديه بالروح .

انيس النصولي

صفحات جديدة من تاريخ بيروت

بيروت الجميلة عاصمة لبنان وعروس الشرق الادنى وطن الشباب الزاهر ومنارة العلم ومهد الادباء والعلماء لا يعرف عنها اهلها الا النزر القليل من الاخبار بل يكاد ابناؤها يجهلونها . بيروت الرابضة على شاطىء المتوسط والقائمة في وسط فينيقيا وهمزة الوصل بين الشرق والغرب مدرسة الفقهاء وحبيبة عشتروت وجنة العشاق اهملها سكانها وما قدروها حق قدرها . بيروت التي أحبتها الآلهة وتصدر بعل بيريت مركز الاله الاكبر فيها وكانت محجاً للاتقياء . بيروت التي دعاها اغسطوس قيصر باسم ابنته « جوليا السعيدة » والتي سوّى بين اهلها البيروتيين وبين الرومان في الامتيازات . بيروت التي أنبتت الاستاذ بابينيان المتشرع الفينيقي المعلم والاوزاعي صاحب المذهب الشهير في الاسلام وابن مكحول الثقة المأمون في العلم والرواية والذي روى عنه خلق كثير . بيروت ترسانة الاساطيل العربية والفينيقية وموطن البطلة العربية الاموية « ام الحرام » . بيروت التي تغزل بحسنها وجمال غانياتها الوليد بن عبد الملك الخليفة والتي قال فيها ابياته المشهورة :

اذا شيت تصابرت ولا اصبر ان شيت

ولا والله لا يصبر في البرية الحوت
الا يا حبـذا شخص حمت لقيـاه بيروت

نعم بيروت التي نحبها ونهواها ونفتخر بامجادها وتاريخهـا يجب ان يتعرف اليها المواطنون اللبنانيون وجميع العرب عـلى مختلف اقطـــارهم .

ولو عرف اللبناني والبيروتي على الاخص ان كل شبر من ارض بيروت يحمل تراثاً عظيماً وان كل حفنة من ترابهـــا شاهدت اثراً كبيراً لأحنى الهام لهذه المدينة الحبيبة احتراماً وتقديساً ولقبـل هذه التربة التي مزجت بدماء ابائنا واجدادنا .

فتحت عيني على بيروت وصخورها ورمالها واسواقها القديمـة فعرفت سوق الفشخة وسوق البازركان والدركاه وباب يعقوب ثم سرت مع سيدي والدي ازور البرج المعروف بالخارجي وتربـــة المصلى والغرباء ثم سجدت مع الساجدين وركعت مع الراكعين في المسجد الجامع فتخيلت امامي الملك الصليبي بغدوين يصلي في كنيسة يوحنا المعمدان ويقرأ عند بابه باليونانية آية الزبور (٢٨ : ٢) عند حرن المعمودية « ان صوت الرب على المياه » ثم رجعت بي الذاكرة الى صلاح الدين فرأيته وقد نصب السنجق السلطاني على الكنيسة الجامع وقد وقف يستمع الى الخطيب ثم يخلع عليـه الخلع الباهرة ويأمر بتكريمه .

رددت مع شاعرنا الخالد شوقي قوله :

« كنيسة صارت الى مسجد هدية السيد للسيد »

هذه بيروت وهذا سورها الحصين الذي عرف فاتحـاً اثر فاتح

وشهد مدافعاً اثر مدافع وقد وجد بعضه منــــذ عام حينما فتحت بلدية بيروت شارع النجمة الذي يمتد الى باب ادريس قرب كنيسة "كبوشيين .

ثم هذه هي البستورا مثوى المرضـــين والعلماء والاعلام من العرب . انها اليوم ضمن المدينة بل وفي حي من اعظم احيائها .

ثم شاهدت بعيني وكنت طفلاً معاول عزمي بك تهدم اسواق المدينة العتيقة لتفتح الشوارع والميادين الجديــدة ورأيت بيروت القديمة وقد هدمتها الزلازل وطمر بعضها في شارع المعرض اليوم .

بيروت يا موطني الحبيب كم اود ان انقل حي لك لكل قلب في لبنان وبلاد العرب ولعلي مصيب بعض النجـــاح في مقالاتي الآتية عنك .

معاول عزمي بك دكت معالم المدينة القديمة

في بيروت تجتمع عناصر الجمال الطبيعي

عرفت بيروت التي رأيت فيها الموزخة الشوارع قذرة الاحياء مدثرة بالاوساخ والجراثيم الضرة وما ازال اذكر البـــائعين وقد جلسوا على مصطبات دكاكينهم يستقبلون زبائنهم ثم ما أزال أرى سوق القطايف وبركة السوق . ولعلي لا أكون مخطئاً اذا قلت ان الاسر البيروتية كانت تسكن في معظمات حي النكدات وخارج السور وفي قلب المدينة فجاءت معاول عزمي بك الوالي التركي أبان الحرب العالمية الاولى تعمل فيها هدماً فاصبحت بيروت القديمة مليئة بالركام والاحجار ترى نور الشمس بعد ان حجبتها زمنـــاً

طويلا العقود والبيوت المتلاصقة . ثم كانت همم اصحاب الاعمال والمال فشيدوا شارع اللني وشارع فوش وشارع المعرض وميدان النجمة واضلاعها فانقلبت بيروت رأساً على عقب وأصبحت تباهي أجمل المدن في هذا الشرق وامتدت العمارة في أرباضها وتزينت احياء رأس بيروت والصنائع والحرج والنهر بالقصور الجميلة .

وبيروت عاصمة لبنان مدينة تمتاز بعناصرها الطبيعية فهي غنية برمالها وجبالها وغاباتها وبحرها ونهرها المعروف بنهر ماغوراس الذي اخصب ريفها وكانت مياهه كما روى العلماء تجري الى انحائها بالاقنية والقناطر ، ويسمي الاهلون هذا النهر بنهر بيروت وتنضب مياهه في الصيف ويمتد اليه اليوم الكورنيش الذي يحيط ببعض أجزاء البلد ويتنزه حوله الالوف في الاعياد .

أما جو بيروت فمعتدل ولطيف فلا يعرف اهلها البرد القارس ولا الثلوج البيضاء الا نادراً في الشتاء ولا تذيبهم حرارة الشمس ولا لوافح السموم في الصيف كما ان الجبال تحميها من الرياح الشرقية التي تهب على الصحراء . ويلطف هواء البحر المنعش جوها ولعلها البلد الوحيد الذي ينعم بقرى الاصطياف القريبة منه فأهلها الاغنياء في نعيم مقيم .

وتقع في وسط الساحل الفينيقي وهي صلة الوصل بين جميع الاقطار العربية والشرقية فترى الخيرات والبضائع ترد اليها من العراق وفلسطين والاناضول وسورية والاردن والحجاز كما ان صادرات اوروبة تمر بها الى اقصى الشرق .

ولعل اجمل ما في بيروت رأسها المعروف برأس بيروت وهو

يدخل في البحر نحواً من تسعـــة كيلومترات ويزهو هذا الرأس بالجامعة الاميركية منارة الشرق الادنى ومركز الثقافة العالية فيه.

أما غابات الصنوبر فيها فهي الميزة الطبيعية التي تمتاز بهـــا على معظم مدن الساحل اللبناني . بل هي الهبة التي وهبها القدر لهـــذه المدينة الفتانة وقد يظن البعض ان هذه الغابات التي نشاهدها اليوم هي حديثة العهد يرجع بعضها الى ابراهيم باشا وفخر الدين المعني.

وقد يكون في هذه الرواية شيء كثير من الصحة ولكن الحقيقة ان بيروت اشتهرت بغاباتها منذ القدم .

بيروت مدينة الماء والخضرة الدائمة

هل فكرت ايها البيروتي لماذا دعيت مدينتك الجميلة باسمهـــا « بيروت » ان للمؤرخين ابحاثاً جليلة بهذا الموضوع وكان لكل منهم رأي محترم وبراهين فيها بعض الحقائق تدعم نظرياتهم فقال بعضهم ان « بيروت » اسم فينيقي كجميع اسماء المدن الواقعـــة على الشواطىء اللبنانية السورية بين اللاذقية وصور . وقال آخرون ان اسم بيروت مشتق من الكلمة الأرامية « بروتا » وهي تعني الشجر الدائم الاخضرار كالسرو والصنوبر ويدللون على ذلك بقولهم ان غابات الصنوبر والسرو هي جزء لا يتجزأ من هذه المدينة وعرفت بها منذ اقدم ازمنة التـــاريخ وليست احراج الصنوبر التي ترد عن المدينة غائلة الارياح التي تحمل الرمال حديثة العهـد او من غرس الفاتحين منذ مائة او ثلاثمائة عام بل هي طابـــع بيروت القديم

واشجارها منتشرة في معظم ضواحيها وارباضها .

ويقول بعضهم ان مدينتنا الخالدة دعيت باسم بيروت لان السرو كان يرمز الى آلهة السكان « عشتروت » وعشتروت هي الهة الحب والجمال وعرف اهل بيروت بالتغني بالحب والجمال لانهم كانوا يتذوقونهما ويعبدون الالهة عن طريقهما . ودعى العرب عشتروت باسم « الزهرة » و« اللات » كما دعاها الرومان باسم فينوس وبعبارة أخرى كانت بيروت تعبد عشتروت وكانت رمز عشتروت شجرة السرو المعروفة باسم « بروتا » .

والواقع ان اسم بيروت على الارجح مشتق من البئر وتجمع « الآبار » في اللغة العبرية على « بئروت » ويعرف البيروتيون ان مدينتهم مليئة بالآبار التي حفرها اجدادنا الاقدمون وكان للبيوتات الكبيرة آبار في دورها تشرب مياهها وتستعملها في ري جنائنها ولم تتلاش هذه الآبار الا حينما بدأ الاهلون في هذه المدينة يشربون مياه نهر الكلب المتدفقة من مغارة جعيتا الكبرى وتظهر هذه الآبار بصورة جلية في وسط بيروت القديمة وقد رأيت بعضها وتشاهد آثارها اذا ازرت بيتاً قديماً لم يهدم .

وكان البيروتيون يشربون من مياهها بالقرب من دير راهبات المحبة . وقد غارت مياه بيروت في الارض وتجدها اذا حفرت بضعة امتار في تربتها .

وهكذا ترى ان بيروت هي مدينة الابار ومدينة الصنوبر اي بعبارة واضحة هي مدينة الماء والخضرة الدائمة بل ومدينة الحب والجمال التي يرمز لها الاله عشتروت فلا يلومن احد البيروتي اذا

احب خضرة النعيم واحب ان يتمتع به الى الدرجة القصوى فهذا الحب في دمه منذ العصور القديمة .

وشاء الامبراطور الروماني اوغسطوس قيصر ان يدعو بيروت باسم ابنته الفاتنة جوليا السعيدة .

وهكذا عرفت في العهد الروماني باسم « جوليا اوغستا فليكسا بيريتس » وخول اهلها الامتيازات التي كان يتمتع بها الرومان انفسهم .

هذه قصة مدينة « بيروت » من ناحيـــة اسمها . فعاش الاسم وعاشت هذه المدينة الفاتنة .

لماذا اطلق على النهر اسم نهر الكلب !

بيروت من اقدم المدن في العالم

يتبادر الى الاذهان لأول وهلة ان بيروت ليست مدينة عريقة في القدم كدمشق او غيرها من المدن التي قامت على ضفاف الانهار الخصيبة ولكن الباحث المحقق يعرف تماماً ان ذكر مدينة بيروت ورد في الآثار التي اكتشفت في « تل العمارنة » بجوار مدينة اسيوط من مديرية الفيوم في مصر وقد اكتشفت السجلات التي كان يكتب عليها الملكان امينوفيس الثالث وامينوفيس الرابع في سنة ١٨٨٨ ق.م وهي منقوشة بالحروف المسمارية على قطع من الاجر ولغتها اللغة الفينيقية وورد الى جانب اسم مدينة بيروت اسماء غيرها من المدن والقرى الفينيقية . وترجع هذه السجلات الى القرن الخامس عشر قبل المسيح . اما قبل هذا التاريخ فليس لدينا حقائق راهنة عن

مدينتنا انما يظهر ان سكانها الاولين عاشوا في الكهوف القريبة منها ووجدت آثار بعضهم في كهف انطلياس كما عثر على بعض سلاحهم القديم كالسهام والمــــدى والفؤوس وحجر الصوان في مجرى نهر ماغوراس المعروف اليوم بنهر بيروت .

ونستدل على قــدم بيروت من النصب التذكاري الذي نقشه على صخور نهر الكلب الملك رعمسيس الثاني المصري وهو نصب جميل يراه كل من يقصده وما يزال محتفظــاً ببعض النضارة رغم عناصر الطبيعة القاسية ويمثل رعمسيس ساجـــداً للاله « راع » . ويدل دلالة واضحة ان رعمسيس كان قد فتح الساحل الفينيقي وشكر الاله على هذا التوفيق ويرجع تاريخ النصب الى السنة الرابعـة من ملكه . ونسج الفاتحون على منواله فتجد ان نفراً من القواد الاقدمين والمحدثين قد نقشوا آثارهم على صخور نهر الكلب وحري بكل لبناني ان يقصد الى هذه الاثار ليرى رأي العين اثار القوات والجحافل التي عرفها وطننا وعرفتها بصورة خاصة مدينة بيروت.

ولو عرفت ان مملكة بيروت الفينيقية كانت تمتد في هذه الرقعة من الارض المنبسطة بين نهري الكلب والدامور لدهشت واخذك العجب وهكذا فيكون طولها نحواً من ٣٦ كيلومتراً وعرضها ما يقرب من عشرة كيلومترات اي المسافة الـــتي تمتد من الشاطىء الفينيقي حتى السفوح اللبنانية ويقول البعض ان سكان مدينة بيروت الفينيقية جعلت الكلاب حارسة لتخومها الشمالية فدعي النهر الشمالي الذي يفصلها عن غيرها بنهر الكلب .

وكان سكان بيروت الفينيقية تجاراً وتتألف ثروتهم من القوافل

البرية والزوارق البحرية . اما القوافل البرية فكانت تأتي بخيرات البلاد الارامية والمادية ومن ثم تنقــل بواسطة السفن الى القطر المصري وجزر الابيض المتوسط واليونان والجزائر وتونس والموانىء الاوروبية . ثم كانوا يشترون محاصيل الممالك التي يؤمونها ويبيعونها الى اقاصي العراق وفارس والهند واقاصي الشرق .

وكانت بيروت مطمح انظار الفاتحين بالنظر لتجارتهـا الواسعة فغزاها الاشوريون والبابليون كما غزاها المصريون وما تزال نقوشهم وصورهم وكتاباتهم ظاهرة واضحة على صخور نهر الكلب .

اليونان والرومان على السواء يكرمون بيروت

بيروت ترسانة البحر الابيض المتوسط

كانت بيروت ترسانة قديمة اشتهرت بصناعـــة السفن وحينما خضعت لدولتي ماداي وفارس في اواسط القرن السادس قبـــل المسيح استعان الفرس بالاساطيل التي بنوها في ميناء بيروت وقـد فتحوا بها شواطىء الاناضول والساحل السوري . ولعـــل قرب الغابات من المدينة ووفرة الاخشاب فيها جعل منها هذا المركز الممتاز في صناعة السفن والمراكب التجارية والحربية . وبوسعنا ان نقول ان اساطيل بيروت وصور وصيدا وجبيل هذه الاساطيـل الفينيقية كانت دوماً في خدمة الفاتحين من الشرق والغرب .

ومن يتفحص النقود التي صكت في بيروت في عهد الفاتحـين الاقدمين يتأكد من عظمتها البحرية فترى على بعضهـــا اله البحر (بعل بريت) واقفاً عند رأس السفينة وفي احــــدى يديه صورة

الدلفين وترى في البعض الاخر الاله جالساً على مركبة تجرها اربعة رؤوس من الخيل الكريمة وتمثل بعض نقودهم الالهـة عشتروت معبودة بيروت .

ولما انتقلت بيروت الى سلطان اليونان السلوقيين انتشر التمدن اليوناني في مدينتنا وشاعت الديانة اليونانية فيها . كذلك قامت فيها القصور الشاهقة والتماثيل الفخمة وهياكل العبادة العظيمة . وشاعت اللغة والازياء والنقوش اليونانية وارتاح الاهلون الى هذه المدينة الجديدة فأقبلوا عليها اقبالاً عظيماً . وما نزال نرى النواويس والاعمدة اليونانية المطمورة في الارض وهي تظهر لنا عظمة الاسكندر فاتح هذه البلاد وصكت النقود باسمه وتداولها الناس في معاملاتهم وتشاهد بعضها في مختلف المعارض واعطى اليونان السلوقيين مدينة بيروت استقلالها الاداري فحكمت نفسها بنفسها ولم يتداخل السلوقيون الا في امور بيروت الخارجية حتى لا يتيحو لها ان تتبع سياسة تتنافر وسياستهم .

وكان اليونان والرومان على السواء يكرمون مدينة بيروت لانها كانت مقدسة في نظر الفينيقيين وقد خصت بالاله البعل المسمى على اسمها - بعل بيروت او بعل بريت — وذكر المؤرخون ان هيكل بعل بريت الكبير قد اقيم على الجبل المشرف على المدينة ويؤكد بعضهم ان هذا الجبل هو جبل بيت مري اليوم وكانت كعبة للحجاج والاتقياء فكانوا يقصدونه من السواحل الفينيقية ليقوموا نحوه بواجباتهم الدينية .

وفي العهد اليوناني نبغ العلامة الفينيقي البيروتي « منكن يتز »

وقد خلف لنا معلومات تاريخية قيمة وكفى بيروت فخراً بابنهـــا المؤرخ النابغة .

حفلات الرومان في ميدان ميناء الحصن

بيروت مدينة الحفلات الرومانية العظمى !

احتل الرومان بيروت عام ٦٤ قبل المسيح فاهتموا بها اهتماماً خاصاً وحبوها بانعامات وهبات كثيرة وهي لا تنسى عـلى الدهر الامبراطور العظيم اوغسطس قيصر فقد اطلق اسم ابنته جوليـــا السيدة عليها وجعل « مرقس وسبستانوس اغريبا » زوجاً لجوليـا وحاكمـــاً على بيروت . ويقول المؤرخون ان البيروتيين كانوا كالرومان في الحقوق والامتيازات الوطنية وقد نزح اليها كثيرمن الرومان واستوطنوها واسسوا فيها المحلات التجارية الواسعة وكان يقيم فيها دائماً فرقتان من فرق الجيوش الرومانية وضربت النقود البيروتية باسمها .

ويدهش البيروتي ان يعلم ان ميناء الحصن على شاطىء البحر عرفت اكبر ميدان للالعاب الرياضية وللصراع بين الحيوانات بل واعظم مسرح في التاريخ القديم وكانت تمثـــل عليه الروايات التراجيدية والغزلية وتطرب الجوقات الموسيقية الشعب بالحانهـــا .

وما تزال السنة التاريخ تردد الوقيعة المشهورة الـتي حدثت في ميدان بيروت فقد حكم على ١٥٠٠ مجرم من مجرمي البـــلاد ان ينقسموا الى قسمين ويقاتل بعضهم بعضاً وقـــد ظلوا في قتال مستديم والنظارة تضحك وتقهقه حتى هلك الجميع عن آخرهم واعل

هذا الاسلوب في الاعدام الضاحك الوحشي هو الاول من نوعـــه الذي عرفته بيروت مدينة الهدوء والطمأنينة .

وشاهد البيروتيون في هذا الميدان حفلتين تاريخيتين اولاهمـا حينما نادى الجيش بالقائد العظيم فسبسيانوس امبراطوراً على المملكة الرومانية بعد ان قضى الامبراطور نيرون نحبه وقد جرت حفـلة المبايعة في هذا الميدان واقسم له القادة والجند على الطاعـة وسافر من المدينة الفينيقية الرابضة على المتوسط الى روما الخالدة ليتولى مهام الدولة ومسؤولياتها . والحفلة الثانيـة يوم هزج الشعب وفرح البيروتيون فرحاً عظيماً بفتح طيطوس لاورشليم وقد امر طيطوس ان يقتل الاسرى اليهود في الميدان ارضاء لنقمة الناس عليهم .

وشيد الرومان في بيروت العمارات الفخمة وقيل انهم بنوا ما لا يقل عن ٦٤ نادياً واهمها نادي المجلس البلدي ويقال انهم استدلوا على آثاره عند باب الدركه بالقرب من « رجال الأربعين » وكانت اجمل ما تزدان به بيروت الاروقة المشيدة على اسوار ضخمة والـتي كانت تمتد على طول المدينـــة وكانت متنزه الشعب في المواسم . ويجد البيروتي هنا وهنالك اليوم بعض هذه الاعمدة مطموراً اما في الرمال او غيرها من الامكنة .

وما نزال نشاهد حتى هذه الساعات الانصاب الرومانية الــتي تدل على المسافات في الطرق بين القرى والمدن وكانوا يعنون بهـا عناية خاصة واخذ الاوروبيون عنهم هذه الفكرة فرقموا المسافات على بعض الالواح واقاموها على مفترق الطرق .

وعبد الرومان اله بيروت « بعل بريت » هذا الاله الذي يحيي

ويبت في معتقدهم وقد تمثلوه في الشمس الدافئة التي تجعـــل من الطبيعة عروساً كلها حياة في الربيع فأقاموا لهـــا مواسم العبادة والافراح في هذا الفصل من السنة . واتخذوا النار ايضاً ممثلة للاله بعل بريت وقدموا لها اطفالهم قرباناً لترضى .

واعظم معبد « لبعل بريت » في عهد الرومان كان في دير القلعة وكان كعبة اهل بيروت وطالما حجوا اليه وصلوا ثم لهوا ورقصوا عند الهيكل ، وما تزال آثار دير القلعة باقية الى عهدنا هذا .

بيروتي يضع قسماً من دستور يوستنيان

كلية الحقوق الرومانية في بيروت

اذا كانت بيروت تفتخر في عصرنا هذا بالجامعة الاميركية والكلية اليسوعية ومدارس الحكمة والبطريركية والمقاصدوغيرها من المؤسسات العلمية فقدحق لها ان تزهو على الدنيا بمدرسة الحقوق الرومانية فقد انشئت في اواخر القرن الثاني للمسيح ونالت شهرة منقطعة النظير حتى قيـل ان مدرسة الحقوق في بيروت اكتسبت شرفاً رفيعاً وجعلت الشرق كله يرفع الرأس عالياً بها . وبالـــغ بعضهم فروى ان مجد بيروت بمدرسة الحقوق الرومانية فاق مجـد روماوالقسطنطينية .

افتتح مدرسة الحقوق الرومانيـــة في بيروت الامبراطور اغسطوس قيصر وكانت قبلة الانظار في اوائل القرن الثالث لانهـا كانت مجمعاً لاكبر الاساتذة في الفقه والقانون والشريعة وكان يؤمها الطلاب من كل الانحاء وتخرج منها قضاة العـالم ومحاموه في

تلك الايام فنعتت بيروت « بام العلوم وظل الشرائع » و« كرسي الآداب » « ومدينة الفقهاء » .

ولما اراد الامبراطور يوستنيان ان يجمع « الدستور اليوستنياني» في كل اقسامه وفروعه استدعى لجنة من كبار العلماء الاعلام الى القسطنطينية وانتدبهم لتهذيب الشرائع الرومانية وتنظيمها وجمعها وترتيبها وكان من اعضاء هذه اللجنة ثلاثة اساتذة من مدرسي كلية الحقوق الرومانية في بيروت وكان لهم يد بيضاء في هـــذا العمل الجليـــل وهم الاستاذ « اودكيوس » والاستاذ « اناطوليوس » والاستاذ « دوروتاوس » ولعل الاستاذ اودكيوس البيروتي هو الرجل الاوحد الذي الف احد اقسام الدستور اليوستنياني برمتـه والمعروف بالديجستا او « المنظم » Digesta واذا ادعينا ان هذا الدستور اليوستنياني هو ركن ركين في الشرائع الحديثة فـــلا نكون من المبالغين وهكذا نرى ان فضل بيروت في علوم الشرائع واضح للعيان .

وكانت الحكومة الرومانية تشجع الشباب على ارتياد معهـــد الفقه والحقوق فكانت تعفي طلابـه من الضرائب ويظهر ان سني الدراسة فيه كانت خمسة اعوام وكان على الطالب ان ينال الشهادة من استاذ الصف الذي يدرس فيه عاماً فعاماً الى ان يتخرج فقيهاً مأذوناً يتقن اصول الشرائع ودقائقها . وبرز من اساتذة هـــذا العهد الاستاذ Papinien والاستاذ Ulpien الصوري والاستاذ Paulus الحمصي. وكانوا من أشهر الفقهاء في المائة الثانية والمائة الثالثة بعد المسيح .

وكان يعيش الطلاب عند الاسر ويحضرون الدروس في الاوقات المرتبة لها وقد قرأنا ان الطلاب كانوا يلهون في بيروت هذه المدينة الزاخرة بالحب والحياة والشباب وطالما اضاعوا زهرة شبابهم في حماماتها وحدائقها وملاعبها ومقاصفها بل طالما تفننوا في عبادة عشتروت مع عشيقاتهم وشربوا عند هيكل باخوس اله الخمر والكرمة . والمؤسف ان خدمة الهياكل التي خصصت للعبادة كانوا يشجعون الشباب على التمتع بملاذ الحياة الجسدية الى اقصى الحدود. والخلاصة ان بيروت كانت كعبة للعلم والمرح في هذا الشرق وظلت مدرسة الحقوق الرومانية في بيروت زاهرة بطلابها واساتذتها ودروسها الى اواسط القرن السادس هذا القرن الذي عانت فيه بيروت من الزلازل والهدم والتخريب ما لم يعانه بلد آخر في تلك الاوقات العصيبة .

احراج بيروت ترجع الى عصور تاريخية قديمة

بيروت مدينة العرائش والخشب والحديد

اعجب العرب اعجاباً كلياً بالاثار الرومانية التي خلفها لنا الرومان في بيروت وارباضها ويظهر ان الرومان كانوا قد استجلبوا مياه نهر ماغوراس وبعض الينابيع اللبنانية الصافية الى بيروت بفني محكمة مرتبة وكتب صالح بن يحيى المؤرخ العربي اللبناني البيروتي وهو احد ادباء القرن التاسع للهجرة والقرن الخامس عشر للميلاد ومن سلالة امراء بني الغرب المشهورين بالبحتريين ان القناة التي كانت تجري بها مياه نبع العرعار الى بيروت من

«العمائر العجيبة». ويقع نبع العرعار هذا بالقرب من قرية بعبدات في المتن الشمالي وما تزال القنى التي سالت فيها هذه المياه باقية كما ان بقايا احد الاحواض ما تزال موجودة الى ايامنا ويراها كل من يقصد ضهور الشوير .

وفتح الرومان الطرق التي تحيط بمدينة بيروت وقد كان لهم الفضل الاكبر بوصل القرى والطرق الساحلية بعروس فينقية وما تزال آثار مشاريعهم ظاهرة للعيان في البقاع العزيز والشواطيء .

واشتهرت بيروت في العهد الروماني بكرومها التي كانت تمتد الى مسافات واسعة وتكسو رباها بحلل سندسية . وكانت تعصر من اعنابها الخمرة الطيبة تكريماً للاله باخوس ، هذا الاله الشاب المرح الذي كان يرافق عشتروت في حبها للحياة البهيجة ولذا قيل ان بيروت هي « ملكة الحياة ومركز السرور » .

وزينت بساتين بيروت الغابات الخضراء من اشجار الصنوبر والسرو والشربين والنخيل وقد ورد ذكر هذه الغابات في القرن الرابع للمسيح كما انه ذكرها الجغرافي العربي الادريسي في كتابه المشهور « نزهة المشتاق في اخبار الافاق» وعاش الشريف الادريسي في القرن السادس للهجرة والثاني عشر للمسيح وقد قال :

« ابيروت غيضة من اشجار الصنوبر سعتها اثنا عشر ميلاً في التكسير تتصل الى نحو لبنان » وهذه الرواية تنفي قول القائلين ان احراج بيروت هي من غرس فخر الدين الثاني المعني او ابراهيم باشا الفاتح المصري ولعل الرجلين الكبيرين زادا على هذه الاحراج بغرس جديد او هذباها واهتما بها .

واتلف الصليبيون والمسلمون على السواء بعض احراج بيروت أبان هذه الحروب المشهورة فقال صالح بن يحيى المؤرخ البيروتي : « ان امراء المسلمين عمروا من غاباتهـــا مراكب كثيرة وحمالات وشواني لفتح قبرص » وقــال كذلك عن عظمة بيروت في صنع الاساطيل المؤلفة من المراكب الحربيـــة ما يدهش له القارىء والظاهر ان بيروت لعبت دوراً كبيراً في الفتوح الاسلامية لجزر البحر الابيض المتوسط واتلف لذلك قسم كبير من احراجهـــا ورواية صالح بن يحيى الآتية تثبت رأينا في هذا الموضوع : « امر الامير الكبير (يلبغا العمري) سنة ١٣٦٥ م سيف الدين بيد امر الخوارزمي بالتوجه الى بيروت لبناء عمارة فحضر الىبيروتواحضر صناعاً كثيرين من سائر الممالك فكانوا جمعاً غفيراً وقيل انه لم يعهد قط عمارة مثلها عظماً وسرعة وكثرة صناع وقوة عزم وعمر بيدامر بظاهر بيروت مسطبة وعرفت به الى الآن وكانت المراكب تعمل بها على بعد من البحر .

ولم تكن بيروت غنية بكرومها واحراجها واخشابهـا فحسب بل كانت غنية بمعادنها فقال الجغرافي المقدسي في كتابه احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٨٤ « ان معادن الحديد في جبـال بيروت » وروى الادريسي — « وبمقربة من بيروت جبل فيه معدن حديد ... يستخرج منــه الكثير ويحمل الى بلاد الشام » وذكر ابن بطوطة : وسرنا الى مدينة بيروت ويجلب منهـــا الى الديار المصرية .. الحديد » .

وهكذا تجد ايها البيروتي ان مدينتك الجذابـــة الساحرة هي

مدينة وهبتها الطبيعة مزايا لن تراها في غيرها من المدن .

عرف الرومان قدر بيروت فاستوطنوها وغرسوا فيها الكروم والغابات وفتحوا لها الطرق واستجلبوا لها الينابيع في قنى منظمة فهل يعرف اللبنانيون قدر عاصمتهم ؟

زلزال عام ٥٥١ اعظم كارثة اصابت بيروت

روما تمنح بيروت الحكم الذاتي !

نحن عريقون في استقلالنا الداخلي منذ اقدم ازمنة التاريخ ونحن ديموقراطيون بانظمتنا واساليب الحكم عندنا وقد يخطىء من يظن اننا امة يسهل استعبادها او الانتداب عليها فقد اضطرت روما ان تمنحنا الحكم الذاتي وان تعفينا من الجزية التي يدفعها المغلوب للغالب وهكذا اصبحنا دولة صغيرة مستقلة بامورها الداخلية في الشرق الروماني . وكان يحكم بيروت قنصلان ينتخبهما الشعب البيروتي لمدة عام وكان لنا مجلس نيابي يتألف من مائة عضو وكان هؤلاء الاعضاء من رؤساء القبائل او الاسر الكبيرة في البلدة . وطالما بحثت المسائل الهامة في الندوة النيابية وقام الخطباء يناقشون القنصلين اللذين يمثلان السلطة التنفيذية في كثير من المقترحات المالية والاجتماعية . واشتهرت بيروت بساحتها العامة التي كان يجتمع فيها الشعب الى الزعماء السياسيين وكانت تسمى هذه الساحة عند الرومانيين بالفورم Forum .

لم تعرف بيروت كارثة مريعة حلت بها ككارثة الزلازل التي اصابتها في سنة ٥٥١ ميلادية فقد تهدم معظم قصورها وابنيتها

و. ت خلق كثير من اهلها تحت الانقاض وقد وصف الواصفون بان امواج البحر جزرت الى مسافة تقدر بميل من الشاطىء ثم هاجمت البلدة هجوماً عنيفاً فاغرقت الاساطيل الراسية في مينائها ثم اغرقت مدرسة الحقوق الرومانية وطلابها واذاقتهم كؤوس المنون المريرة . وتوالت المصائب على عروس الشرق الادنى حينما نشب الحريق الهائل وبها سنة ٥٦٠ م.

وفي كتاب تسريح الابصار « ٢ : ١٨ » انه كان يجاور الشاطىء بعض الجزر الصغيرة وقد بقيت الى القرون الوسطى ثم اغرقتها الزلازل الى اعماق البحار وقيل انها نسفتها نسفاً . ونعق البوم في جو بيروت واصابها الخراب بعد كارثتي الزلازل والحريق فصبحت مدينة حقيرة وقد فتحت عينيها للحياة في العهود الصليبية وعصور المماليك ثم رجعت الى خمولها الى ان اشرقت عليها شمس القرن التاسع عشر فكانت النهضة العربية في السياسة والاجتماع والثقافة .

ثم كانت بيروت الحديثة عاصمة الجمهورية اللبنانية المستقلة ومنارة الجامعة العربية ودار العلوم وموئل اهل الفضل من كرام الرجال اصحاب الاعمال والاموال ومركز الحكومة .

وقد تشرفت بيروت في العهد الروماني بالسيد المسيح عليه السلام فقيل انه لما اعتزم التبشير بالمبادىء الفاضلة التي حمل مشعلها بلغ ثغر بيروت وتخوم صيدا وصور ويمكننا ان ندعي اذن ان بيروت التي قدستها فينيقية قدستها المسيحية ايضاً وهي من جملة « الاراضي المقدسة » .

ويحترم الاسلام بيروت ويضعها في المرتبة الفضلى من المدن

لانها كانت ثغر المرابطين والفاتحين ومدينة العلماء ويجلها الكثيرون لانها كانت مدينة الاوزاعي وابن مكحول .

ونقول نحن ان بيروت التي قدستها فينيقية واثينا وروما ثم النصرانية والاسلام لهي المدينة التي تتعشق اسمها ونفخر بها على الزمن وعلى عواصم الدنيا .

اهل بيروت اذا دعوا للخير أجابوا واذا ايقظهم الداعي اثابوا

يزيد بن ابي سفيان فاتح بيروت

يتساءل الكثيرون عن القائد العربي الذي افتتح بيروت والشاطىء الفينيقي . وقد يظن البعض ان خالد بن الوليد هو الذي رفع اعلام العروبة في فينيقية والحقيقة هي ان هذا القائد العظيم هو اول من دخل دمشق بعد اواسط سنة ٦٣٥ للميلاد ثم أتم فتح بقية بلاد الشام في السنين التالية وكان القائد يزيد بن ابي سفيان هو الذي احتل عرقة وجبيل وبيروت وكان ساعده الايمن في هذه الفتوح الساحلية الجليلة اخوه الخليفة الاموي المشهور العربي معاوية مؤسس الدولة العربية في دمشق . قال البلاذري في فتوح البلدان ص ١٢٦ « ان يزيد بن ابي سفيان أتى بعد فتح مدينة دمشق صيدا وعرقة وجبيل وعلى مقدمته اخوه معاوية ففتحها فتحاً يسيراً « اي سهلا » وجلا كثيراً من اهلها ثم ان الروم عادوا فغلبوا على بعض هذه السواحل في آخر خلافة عمر بن الخطاب واول خلافة عثمان بن عفان ؟ ففتحها ثم رمّها وشحنها بالمقاتلة واعطاهم القطائع سنة ٦٤٠ م » .

وقسمت الدولة العربية البلاد السورية الى خمسة اجناد وهي : (١) دمشق (٢) حمص (٣) قنسرين (٤) الاردن (٥) فلسطين . وقسموا كل جند الى كور وكانت بيروت كورة من كور دمشق . اما جند قنسرين فيعني اليوم ولاية حلب تقريباً . واما جند الاردن فكان يشمل في جملة مدنه طبريه والقدس وصور وعكا واللجون وبيسان واذرعات .

وارتأت سياسة معاوية البطش في بدء الفتوح فاستجلب اقواماً من الفرس والزط والاساورة وامرهم ان يستوطنوا الشواطىء والجبال ليكونوا حصرمة في عيون الروم وليجعلهم حصناً حصيناً في وجه الموجات الغازية من صوب البحر .

وقد فسر اليعقوبي صاحب كتاب البلدان ما نقوله احسن تفسير فقال في الصحيفة ٣٢ من طبعة ليدن : « وللجند دمشق من الكور على الساحل كورة عرقة ... وفيها قوم الفرس ... ومدينة طرابلس واهلها قوم من الفرس ... وجبيل وبيروت وصيدا واهل هذه الكور كلها قوم من الفرس نقلهم اليها معاوية بن ابي سفيان » ويدعي بعضهم ان بعض الشيعة من سلالة هؤلاء الفرس ويقول آخرون ان النصيرية في جبال اللاذقية هم ايضاً من سلالة الفرس ولكن فلسفتهم في الدين دخل عليها كثير من الاراء الباطنية والصليبية .

ويظهر ان بيروت في العهود العربية كانت قليلة الشأن بالنسبة الى دمشق وحلب وحمص فقد قال المقدسي وهو جغرافي سوري عاش في القرن العاشر ما يلي :

« صيدا وبيروت مدينتان على الساحل حصينتان وكذلك طرابلس الا انهـــا اجل » غير ان اهالي بيروت كانوا من اهل المروءات اذا دعوا للخير لبوا واذا طلب اليهم النجدة انجدوا وهم اهل صلاح ودين وتقوى و ولعمري فان للبيروتيين صفات ممتازة في الاخلاق اذا حافظوا عليها اليوم فانما يحافظون على تراث خلفه اجدادهم . قال ابن حوقل في كتابه « المسالك والممالك » وهو من الذين عاشوا في القرن العاشر: « اهل بيروت اذا دعوا للخير اجابوا واذا أيقظهم الداعي انابوا » .

وكانت بيروت في عهد ابن حوقل « ذات نخيل وقصب سكر وغلات متوفرة وتجارات البحر عليها دائرة وسابلتها غير منقطعة حصينة خصيبة متينة السور رخيصة الاسعار جيدة الاهل مع منعة فيهم من عددهم وصلاح في عامة امورهم » .

ليت ابن حوقل يعيش في ايامنا وفي القرن العشرين ليشاهد بام عينه الغلاء : غلاء في الرغيف والطعام والغذاء والكساء لعمري كل هذا يزول فقد يعقب الازمات الفرج ولكن ان تضيع المروءات والاخلاق العالية التي اشتهر بها اجدادنا البيروتيون فهذا ما لا نرضاه ولن نرضاه نحن احفادهم ابداً .

كان الاوزاعي مفخرة بيروت في الدين والعلم والعدل

الامام الاوزاعي والسيدة ام حرام

تشتهر المدن برجالها ونسائها الذين ينيرون الزوايا التي يعيشون فيها . وقد يكون اشعاعهم عظيماً فيضيئون سبل العالم بما ينشرونه

من آيات الفكر والبطولة بين الناس . وهذه بيروت لولا السيدة ام حرام زوجة عبادة بن الصامت التي عرفت ببطولتها في العهد الاموي وفي الغزوة التي غزا بها معاويه قبرص لما عرفنا الا شيئاً قليلاً عن بيروت في ايام الامويين . قال ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان : « ... ان بيروت دار صنعة دمشق وبها عمر معاوية المراكب وجهز فيها الجيش الى قبرص ومعهم ام حرام واسمها العميصاء بنت ملحان زوجة عبادة بن الصامت فلما رجعت رابطت ببيروت وماتت بها ويقال ان في بيروت قبور جماعة من الصحابة والتابعين وتوفيت سنة ٦٤٨ م » وما يزال المسلمون البيروتيون يتبركون بها ويحفظون لها في قلوبهم اجمل الذكرى ولعلهم توارثوا هذا الاحترام اباً عن جد . ولعمري كنت اود ان أتعرف الى البقعة المباركة التي دفنت بها هذه البطلة اللبنانية لنؤدي لها بعض ما يليق بمقامها من نصب جليل يحفظ ذكراها الى الابد .

واذا كانت بيروت قد عرفت في التاريخ الاموي بالسيدة ام حرام فان التاريخ العباسي قد يحفظ في طياته اعظم الاحترام لشخصية لبنانية ونعني بها شخصية الامام الكبير عبد الرحمن الاوزاعي . من منا نحن البيروتيين لا يعرف مقر الامام ؟ بل من منا لم يتنزه على شاطىء الاوزاعي ويلاعب الامواج على الرمال البيضاء ؟بل من منا لم يجلس على الصخور ويتأمل في الافق البعيد هذا الافق الذي اكتحلت به عينا المتشرع الكبير . لله انت ايها الاوزاعي اني لاجد كثيراً من الطمأنينة والراحة بالقرب منك بل لا ينشرح صدري الا عندك وانت الرجل الذي رفض الدنيا

ومناصب الجاه والمال الوافر حباً باحقاق الحق ونشر العدالة في العالم . كيف لا نفخر بك وقد وقفت وقفة القاضي العادل وصرحت بملء فيك انه لا يجوز ان يؤخذ البري بذنب المجرم فدفعت عن لبنان مذبحة مشينة وارجعت الخليفة ابا جعفر المنصور للصواب وجعلته يبكي امام نصائحك الغالية . أجل انت الذي حافظ على حياة الابرياء في لبنان لما ثار بعض سكان الجبل على الدولة العباسية .

ولد عبد الرحمن الاوزاعي في بعلبك سنة ٧٠٧ م ونشأ في البقاع العزيز ثم انتقل مع والدته الى بيروت ورابط فيها مع المرابطين وكان المفتي الاكبر لهذه النواحي واعظم محدث عرفته الديار اللبنانية السورية وهو صاحب مذهب مشهور وقد عمل الناس بمذهبه في الشام ما لا يقل عن مائتي سنة وانتشر مذهبه ايضاً في المغرب والاندلس . وقيل انه اجاب في سبعين الف مسألة وبلغ من نفوذه على الشعب في سوريا ولبنان ما عبر عنه الطبري بقوله : « كان امر الاوزاعي في الشام أعز من من امر السلطان » . وكان الاوزاعي يدرس في الزاوية المعروفة باسمه حتى الآن في سوق الطويلة وقد توفي في قرية حنتوس في آخر خلافة ابي جعفر المنصور وهو يناهز من العمر سبعين عاماً وكان ذلك عام ٧٧٣ م .

واشتهر في بيروت ايضاً محمد بن عبد الرحمن الاوزاعي وكان عابداً قانتاً عاش بعد ابيه عشرين عاماً . كذلك اشتهر في علم الحديث الوليد بن مزيد العذري (٧٤٤ - ٨١٨) وابو الفضل العباس بن الوليد البيروتي (٧٩٥ - ٨٨٣) وابو مسن البيروتي

ومحمد بن عبدالله البيروتي المعروف بمكحول الحافظ المتوفي سنة ٩٣٣ م ، وكان كل هؤلاء من العلماء الاعـــلام الذين يشار اليهم بالبنـــان .

وبعبارة مختصره عرفت بيروت بام حرام الاموية والاوزاعي العباسي وهما مفخرتان من مفاخر لبنان العزيز .

الامراء الارسلانيون يقاتلون المردة في الجبال

بغدوية يحفل بيروت بعد حصار طويل

عاشت بيروت منكمشة على نفسها بعد العهد العباسي وقـد لا نجد في تاريخها ما يدعو الى الاهتمام بها الا في بعض المعارك التي كان يشعل نارها الامراء الارسلانيون ضد المردة في جبال لبنان . وكان الارسلانيون من المرابطين الذين وكل اليهم حراسة الثغور والدفاع عنها ضد الغزوات البحرية التي كان يقوم بها الافرنج فكان من اللازم اللازب ان يحتكوا بالمردة سكان الجبـــل لان هؤلاء المردة كانوا على اتصال تام بالروم والذي نعرفه ان هؤلاء الارسلانيـين كانوا ينتمون الى الامير ارسلان بن مالك اللخمي وقـــد توفي في سن الفيل قرب بيروت سنة ٧٨٧ م وما يزال احفادهم الارسلانيون في لبنان من الرجالات الكرام ومن اصحاب الكلمة النافـذة في الجمهورية المستقلة. واشهرهم المرحوم الامير شكيب ارسلان المؤلف والكاتب العالم والامير عادل ارسلان وزير المعارف السورية واحد الذين غامروا بكل ما لديهم من اجل الاستقلال العربي والامـــير مجيد ارسلان احد الوزراء في لبنان والمرحوم الامير فؤاد ارسلان

الديبلوماسي الناعم واحد النواب في عهد الانتداب الفرنسي .

ثم كانت الحملات الصليبية على سوريا ولبنـــان ومصر فقام بودوين او بغدوين وهو صاحب الرها على عرش بيت المقدس مكان (غودفروا ده بوليون) في ١٨ حزيران سنة ١١٠٠ م وزحف بجيش جرار على مدينة بيروت وهاجمها مع الكونت برتران ده صانجيل براً وبحراً وصنعا برجاً من صنوبر بيروت ونصباه على الاسوار ثم جعلا يقذفان المدينة بالنـار والمنجنيق فصمد لها أهل بيروت وردوا قواتها عن المدينة وكسروا البرج . وقـد كرّ الافرنج مرة أخرى على بيروت وجهزوا برجين آخرين الا ان الملك الافضل امير الجيوش أرسل أسطولاً مصرياً يتألف من تسع عشرة مركباً حربياً وقد تغلب هذا الاسطول عـلى اسطول الافرنج المرابط في ميناء بيروت وملك بعضه ثم ادخـل المؤونة والسحيرة الى سكان البلدة فقويت عزائمهم واشتدوا في الدفاع عن مدينتهم .

غير ان الجنوية وهم سكان جنوى وكانوا يحتـلون السويدية انجدوا الملك بغـدوين باسطولهم الكبير وقد وصل منه كما روى المؤرخون اربعون مركباً مشحونة بالمقاتلة فزحفوا على المدينـة في نيسان سنـة ١١١٠ ونصبوا الابراج على اسوار بيروت واشتدت المعركة البحرية بين الاسطولين المصري والجنوي وقوي القتـــال فاصابت النار مقدم الاسطول المصري فمات لساعته وتشتت المسلمون واستشهد خلق كثير منهم وهجم الجنويون هجوماً صادقاً في آخر المعركة فملكوا بيروت ونهبوا متاجرها وبيوتها وقهروا اهلهـــا بالسيف واسروا شبابهم وسبوا نساءهم واستصفوا اموالهم وذخائرهم .

وقد روى القلانسي المؤرخ تفاصيل هذه المعركة في كتابه ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٨ . وظلت بيروت تنتقل تارة من يد الافرنج الى يد المسلمين ومن يد المسلمين الى يد الافرنج الى ان طرد الصليبيون من البلاد . وقد تنفست بيروت الصعداء حينما انتصر السلطان الاكبر صلاح الدين الايوبي في موقعة حطين سنة ١١٨٧ م على الصليبيين فقد حرر بيروت والشاطىء اللبناني بعد حصار دام ثمانية ايام تم نصب عليها السنجق السلطاني .

كنيسة صارت الى مسجد هدية السيد للسيد

الجامع العمري اقدم اثر ديني في بيروت

هذا المسجد الكبير في بيروت هو اثر من اثار الصليبيين فيها فقد أمر بتشييده الملك بغدوين عام ١١١٠ م وكان كنيسة لاتينية وهي مبنية على طراز صليب ذي ثلاثة اسواق وا سموها باسم القديس يوحنا المعمدان . ويوحنا المعمدان هو النبي يحيى ويتبرك به المسلمون وحينما حولت هذه الكنيسه الى مسجد عرف « بالمسجد الجامع » او « الجامع الكبير » لانه كانت تقام فيه صلوات الجمعة التي يفرض ان يكون كل مسلم مشتركا فيها تم اطلق عليه اسم العمري ذكرى للخليفة الصحابي الكبير عمر بن الخطاب ويتوهم بعضهم ان عمر بن الخطاب هو الذي انشأه والحقيقة هي كما ذكرنا .

ويشتهر هذا الجامع بقببه الكبيرة المتقنة الصنع واعمدته الضخمة . وتجد حتى ايامنا هذه النقوش التي تزين بعض جدرانه والتصاوير البديعة التي امر برسمها الملك بغدوين . ولو دخلت ايها

القارىء من الباب الشرقي لهذا « المسجد الكنيسة » لشاهدت عند مدخله تماماً كوة كتبت عليها باليونانية آية الزبور وهذه الآية كانت عند جرن المعمودية . اما هذه الآية فهي : « ان صوت الرب على المياه » وقد طمس الحكام هذه النقوش والتصاوير وطلوها بالطين .
وما ازال اذكر انني شاهدت في سنة ١٩٣٥ المهندسين ينبشون التصاوير والرسوم الفنية في مسجد آيا صوفيه في استانبول وقد برزت للعيان بعد ان كانت مطلية بالجير وكان ذلك يوم ان جعلت الحكومة الكمالية هذا المسجد داراً للاثار ووصف لنا صالح بن يحيى المؤرخ البيروتي في كتابه تاريخ بيروت ان كنيسة مار يوحنا كانت المركز الرئيسي لعبادة المسيحيين وانهم كانوا يصلون فيها ابان الفتح الصليبي وان المصلين كانوا اقلية في بيروت حتى انهم لم يكونوا ليبلغوا الاربعين عداً في صلاة الجمعة . قال صالح بن يحيى ص ٥٨ في كتابه : « ولما قدر الله بنزع بيروت من يد الفرنج استقرت كنيستهم جامعاً وكانت تعرف عندهم بكنيسة مار يوحنا وكان بها صور فطلاها المسلمون بالطين وبقي الطين الى اواخر القرن الرابع عشر فبيضه وأزال اثار تلك الصور « جد صالح بن يحيى » وهو من امراء الغرب البحتريين . وكان المسلمون يجتمعون لصلاة الجمعة فلم يكملوا في بعض الاوقات اربعين شخصاً ثم تكاثر بها المسلمون فجعلها الله دار سلام وايمان » .

وصلى في هذا الجامع الكنيسة السلطان الاعظم صلاح الدين الايوبي وكان ذلك بعد ان استولى على مدينة بيروت في اوائل سنة ١١٨٧ م. وقد اجتمع صلاح الدين الى الملك بوهيمند الثالث صاحب

انطاكية بالقرب من المسجد الجامع وقيل بجواره وخلع عليه السلطان الاعظم الخلع السنية واكرمه اكراماً يليق بمقامه السامي.

واشتهر ابن المشطوب حاكم بيروت بخطبه في الجامع الكبير كما اشتهر ايضاً بنصائحه الرائعة وكلماته الجامعة الامير عز الدين منقذ احد اصحاب قلعة شيزر وكان ايضاً من الحكام الذين عينوا للنظر بشؤون بيروت . وروي ان الامير عز الدين بن منقذ كان من المعظمين عند السلطان صلاح الدين حتى لم يكن يقدم عليه أحداً في المشورة والرأي .

قلت كان هؤلاء الاماجد خطباء بيروت في المسجد الجامع وكان هؤلاء هم الائمة وقد دوت اصواتهم دوياً في جنبات هذا المسجد الجامع تدعو للخير والصلاح والفضيلة وما يزال هذا المسجد موئلاً لاهل الفضل والعلم يلقون الدروس امام اعمدته للطلاب والمعلمين . ليت الجدران تردد صدى ما يقوله السلف ليتعرف اليه الخلف على الاقل .

مصالح بيروت ودمشق متشاكة منذ القدم

تاريخ الاماكن الاثرية في بيروت

قلنا ان بيروت فيها آثار عظيمة واشهرها الكنيسة الجامع الذي شيده الملك بغدوين سنة ١١١٠ م . وقد وجدت مؤخراً بعض الكتابات على باب الدركة باليونانية ونقلت هذه الكتابات الى متحف بيروت ولعلها ما تزال تنعم بالعناية الكافية من الادارة اللبنانية لهذه الدار القيمة وعسى ان لا تكون فرنسا قد نقلتها الى

ما وراء البحار « الى معرض باريس » فتكون خسارة البلاد بهذا الاثر خسارة لا تعوض وكفى اننا فقدنا اجمل آثار الفينيقيين في مملكة جبيل وهي ثروة لا تعادلها ثروة تاريخية في الشرق . وترجمت هذه الكتابات من اليونانية الى العربية وهذا هو نصها :

« يجب على الداخل الى الهيكل ان يوجه بنظر عقله الى مبدأ ثابت ـ اعطِ بفرح على قدر استطاعتك فان الصدقة القليلة تورث نعمة عظيمة ـ » ولا نعرف تماماً اذا كانت هذه الكتابات قد خطت على هيكل يوناني وثني او كنيسة مسيحية والمهم ان نتفهم روحها فهي تدعو الى فلسفة الخير والاحسان والرحمة بالفقير .

ومن آثار الصليبيين في بيروت جامع الخضر بالقرب من نهر بيروت ويقال ان القديس جرجس او مار جرجس خرج من هذا المكان على التنين فقتله ويظهر ان الكنيسة كانت للموارنة فاغتصبها منهم علي باشا الدفتردار سنة ١٦٦١ وجعلها جامعاً دعي بجامع الخضر . وكان لهذا الجامع املاك واسعة ظلت تتقلص على مرور الايام حتى اصبحت لا تذكر ويستحسن لو تهتم ادارة الاوقاف بها وتضبط مساحاتها .

ويذكر المؤرخون انه كان لبيروت برج كبير بناه الملك الظاهر برقوق لسكنى المجاهدين من الجنود الذين كانوا يرابطون بهذه المدينة وكانت بيروت فرضة دمشق ، ولما كانت السلطات العسكرية السلطانية يهمها امر الدفاع عن بيروت فكانت تأمر قواتها اذا اصابها خطر او داهمها عدو مفاجىء ان تشعل النار في ظاهر المدينة فتجاوبها نار اخرى في رأس بيروت العتيقة ومنه في محطات حتى

تصل الى جبل بوارش ومن بوارش الى جبل يبوس في وادي التيم ومنه الى جبل الصالحية فقلعة دمشق . وهكذا كانت النار صفارة الخطر للحوادث الطارئة في الليل وحمام البطاق وهو حمام الزاجل السيار للحوادث في النهار . أما اليوم فان اشارة تلفونية واحدة او برقية لاسلكية تغني السلطات عن النيران المشتعلة على قمم الجبال او رسائل الحمام الزاجل السيار .

وكانت السلطات العسكرية السلطانية تهتم بالدفاع عن مدينة بيروت لقربها من دمشق . وتثبيتاً لقولنا روى صالح بن يحيى ان « الملك المظفر تقي الدين عمر الايوبي صاحب حماه ، قد اوقف وقفاً على جماعة خياله ورجاله برسم الجهاد وشرط عليهم ان يكونوا في اقرب الموانىء الى دمشق فلما استوطن المسلمون بيروت ... استقرت اقامة المجاهدين بها لقربها من دمشق – ص ٦٢ » هذه كانت حالة بيروت في اوائل القرن الرابع عشر .

وهكذا نجد ان مصالح بيروت ودمشق كانت متشابكة عسكريا كما هي متلاحقة اقتصادياً منذ القدم . ولا يمكن لسوريا ولبنان ان يفترقا ابداً من هاتين الناحيتين فان حياة البلدين بل استقلالهما متوقف على تفاهمهما تفاهماً كلياً وكل حكومة سورية كانت او لبنانية تحاول ان تسلك سياسة العزلة عن شقيقتها فانما تحطم استقلالهـــا وسيادتها بيدها .

ومن الآثار القيمة في بيروت جامع فخر الدين المشهور وبرج الكشاف وخان الوحوش وقد شيدها الامير المعني الكبير كذلك اشتهرت عمارات الشهابيين فيها واعظمها خان الملاحـــة وقد شيده

الامير ملحم والقيسارية العتيقة والبرج المستدير وقد اتمت بناءهما السيدة ام ديوس الشهابي . ويقع البرج المستدير بجانب السور غربي المدينة مكان السراي الكبرى التي تسلمها سامي الصلح رئيس الوزراء السابق من السلطات الفرنسية .

آقدم اسر بيروت آل ارسلان وتلحوق والحمراء

البتربون يحكمون بيروت ثلاثمائة سنة

عرفت بيروت باثارها القديمة وعرفت ايضاً باسرها التي يناهز عمر بعضها الالف عام فجد الارسلانيين عاش في القرن الثامن وثبت لنا انه توفي في سن الفيل سنة ٧٨٧ م كما ورد في بعض الاوراق المحفوظة عند هذه الاسرة الكريمة . اما آل تلحوق فانهم قدموا الى بيروت في عهد الصليبيين حوالي سنة ١١٤٤ م وسكنوا رأس بيروت ولا يزال كبارهم يملك القسم الاكبر من املاك هذا الحي واشتهر هؤلاء المشايخ التلاحقة بباسهم وجبروتهم وقوتهم وكانوا يحاربون دوماً اسرة كريمة هي اسرة آل الحمراء وكانت الخصومة بينهم شديدة . وما يزال في رأس بيروت جامع يطلق عليه جامع الحمراء كما انه فتح شارع عريض بقرب هذا الجامع وقد اطلق عليه أيضاً شارع الحمراء . وكان التلاحقة من الجماعات التي تهوى العمران فقد شيد الشيخ شاهين تلحوق قيسارية باسمه .

وعانت بيروت في القرون الوسطى بلاء عظيما لا سيما في القرن الرابع عشر للميلاد فكان القرصان يغزونها ويعملون في اهلها السيف وينهبونها ويسبون نساءها ويخطفون اطفالها ويبيعونهم كما

يباع العبيد وكان معظم هؤلاء القرصان من سكان ايطاليا كالجنويين والبنادقة والكتلان والبيزان .

وطالما رابطت مراكب القرصان في عرض البحر بالقرب من بيروت ورصدت كل السفن القادمة من اوروبا او من المغرب ومصر فأسرت التجار واستصفت بضائعهم واموالهم فقضي على أسباب التجارة بين الشرق والغرب وقصمت المواصلات وعم الفقر والحرمان طبقات الاهلين . وكانت السفينة التي تقدم الى ميناء بيروت سالمة تعد سفينة حالفها التوفيق والسعد .

وحكم بيروت بعد ان جلا الصليبيون عن البلاد امراء الغرب البحتريون ومنهم المؤرخ المعروف صاحب تاريخ بيروت صالح بن يحيى وقد دامت هذه الاسرة الشريفة في الحكم والسلطان ما يقرب من ثلاثة قرون أي من القرن الثالث عشر حتى السادس عشر . وهي أيضاً من الاسر العريقة في الشرق وتنتسب الى الامير ناهض الدولة ابي العشائر بحتر التنوخ وينتهي من تنوخ إلى المناذرة في العراق ونزح هؤلاء الامراء الى لبنان في اوائل القرن الحادي عشر أي حوالي سنة ١٠٢٧ م . واول من تولى الحكم منهم على امارة الغرب في جبل لبنان وشواطىء الشام الامير مجد الدولة ويعني الجغرافيون بامارة الغرب الشوف . وكان هذه الاسرة العظيمة سهم وافر في طرد الصليبيين من لبنان وكان الامير بحتر المولود في عرامون احد هؤلاء الابطال الذين دافعوا عن امارة الغرب دفاعاً مجيداً ضد الصليبيين شهد له به مؤرخو الافرنج انفسهم فقد كسرهم في معركة رأس التينة عند نهر الغدير .

ولما احتل الصليبيون بيروت مرة ثانية وثبتوا بها اقدامهم — ١١٩٧ و١٢٩١ م في عهد الدولة الايوبية والمماليك الاتراك حصن التنوخيون قلاعهم في القرى اللبنانية المعروفة وهي اعبيه وعرامون وعيناب وقرى الدامور الجبلية وجعلوا يشنون الغارات على الجيوش الصليبية واشتهروا كذلك بحرب العصابات فكانوا يكمنون للكتائب الافرنجية ويترصدونها ويباغتونها ثم يعملون بها تنكيلاً وبالرغم من حال الحرب التي كانت بين الصليبيين والمسلمين فانه في بعض الاحايين كان الود والاخاء يشدان الامراء التنوخيين الى بعض الامراء الصليبيين فيخرجون في رحلات الصيد سوية لا سيما صيد الطيور الجوارح . ويروي لنا بعض المؤرخين ان صاحب بيروت الافرنجي كان يهادي جيرانه الامراء التنوخيين ويهادونه .

ولما جلا الصليبيون عن بيروت جلاءهم الاخير سنة ١٢٩١ م كان هؤلاء الامراء البحتريون اول من احتلها وحصنها واقام فيها الحراس ويقال ان كتيبة الحرس كانت تتألف من تسعين رجلاً .

اباده البحتريين عن بكرة ابيهم بوايمة عبيه

انتعاش بيروت في عهد البحتريين

انتعشت بيروت بعض الانتعاش في عهـــد الامراء البحتريين فراجت الاعمال واخذ بعضهم في تشييد المباني واشتهر الامـــير ناصر الدين خضر في هذا المضمار فزين بيروت واعبيه ببعض الدور وروى صالح بن يحيى ان اباه سيف الدين يحيى شيد ايواناً بديعــاً في بيروت رصفه بالرخام وزخرفه واستجلب المياه الى « حارتهم »

المجاورة للبحر (١٣٨٨) وعرف الامير ناصر الدين حسين بمحافظته على الامن والطمأنينة في المدينة وهو الذي اسس الكتيبة التي تتألف من تسعين فارساً لحراسة البلدة من اللصوص والقتلة « وكان يقسمهم ثلاثة ابدال كل شهر بدل » وعثرنا على قصيدة لاحد الشعراء يمدح بها هذا الامير الجليل فاحببنا نقل بعضها :

ايا ابن امير الغرب شرقاً ومغرباً ومن كل عرف غير عرفهم نكر
باحسانك المشهور بيروت بلدة على الساحل المعروف صار لها ذكر
تبسم عجباً ثغرها وترنحت معاطفها تيهاً وجللها البشر
وعاد لها انس بقرب ركابكم ولولاكم ما افترّ يوماً لها ثغر
هو الناصر المعروف بالجود والتقى له الفضل والاحسان والعطف والبر

واعظم من انبتته هذه الدوحة المباركة الامير صالح ابن الامير يحيى مؤلف تاريخ بيروت فقد كان عالماً مشهوراً وبطلا مغواراً وهو بعبارة ثانية كان رب السيف والقلم وجمع العلوم في معرفة الكواكب والنجوم والاسطرلاب ونظم الشعر وكتب تاريخ بيت تنوخ ولولا مؤلفه لضاعت علينا معلومات وفوائد جمة عن تاريخ هذا البلد . ويقول ابن سباط ص ٢٣٤ ان صالح بن يحيى صاحب غزوات وقد حضر فتوح قبرص سنة ١٤٢٥ .

ولما فتح العثمانيون بيروت دار الزمن بهم دورته فاصبحوا خاملين واصبحت الكلمة النافذة لغيرهم من الذين اكتسبوا رضى السلطان في الاستانة ، ثم كانت المؤامرة المعروفة التي ذهبت ضحيتها هذه الاسرة فدعاهم احد انسبائهم الى وليمة في أعبيه وفتك بهم عن بكرة ابيهم وكان يسمى هذا النسيب علم الدين التنوخي وكان

ذلك عام ١٦٢٣ .

قلنا ان بيروت كانت تعاني كثيراً من بلاء القرصان الذين كانوا يغزونها ونزيد على ذلك ان بلاءها من الطاعون كان اكثر هولا واعظم مصيبة ولطالما جرف شبابها وشاباتها الى المقــابر بسرعة مدهشة ، وقل عدد سكان بيروت فبلغ عددهم نحواً من عشرة آلاف وذلك لما اصابها من الاوبئة وعلى الاخص وباء سنة ١٤٩١ - ١٤٩٢ وللجلال الدين السـيوطي مقامة مشهورة عرفت بالمقامة الطاعونيـة وصف فيها الاوبئة التي عمت الاقطار السورية واللبنانية والمصرية .

وظلت بيروت مهيضة الجناح من المرض والفقر والحرمان حتى اوائل القرن التاسع عشر فتنفست الصعداء حينما احتكت بالغرب ونهضت نهضتها الجبارة اثر نزول الارساليات ورجال العلم والمال والاعمال فيها . وقد كتبنا مؤلفنا عن هذه النهضة وعلى الاخص عن النهضة في المدينة الحبيبة بيروت . ويعرف هذا الكتاب باسم النهضة العربية في القرن التاسع عشر .

طبع على

مطابع الكشاف

شارع المعرض بيروت

مطبعة الكشاف بيروت